عمران دمشق

"متنزهاتها"

لا غرابة في مدينة كالفيحاء خُصت بغوطة غنّاء غبياء ان تحيط بها المتنزهات والرياض احاطة الاكمام بالاثمار ولكن كان هذا ايام استبحارها في العمران وتمتعها بنعيم الامان . ومن الفضاضة الآن ان المتنزهات المستوفاة شروط الصحة والراحة مفقودة على حين انها ما انعدمت في كل الادوار حتى في زمن تخريب التتار وبعدهم

فمدينة كدمشق فيها نهر كبردى يشقها من غربيها الى شرقيها وهي على جانبَ من اتساع الرقعة وانبساط البقعة لا ترى داخلها ولا خارجها متنزهاً يصلح ان ينتابهُ الفقير والغني وما برحت متنزهاتها عبارة عن محال للقهوة كئيبة مظلمة يتكاثف الدخان فيها وتطبق الروائح الكريهة واحسنها هي التي بُنيت قرب المياه الراكدة . وكان مدحت باشا فكرَّ ان يكشف البيوت والحوانيت المبنية على النهر ويجعل في ضفتيهِ رصيفاً يظلل المارّة بالاشجار ويقيم فيهِ المتنزهات والاماكن العمومية لكن الاقدار عارضتهُ . ومنذ سنتين أُعيد هذا الاقتراح على الاهلين بلسان الصحف فعدّوهُ هزلاً لا جدًّا واستحالوا صيرورتهُ لان التجارب علمتهم ان الشرقي لا يقدر ان يعمل عملاً ولو طفيفاً بدون ان يكون تبعاً للغربي يسخرهُ كيف يشاء . ولو تمَّ هذا المشروع لغدت الفيحاء جنة غنّاء وتوفَّر لها كل عام زهاء عشرة آلاف ليرة يخسرها الناس في الفيضان

ويؤخذ من منشور صادر عن نور الدين زنكي سنة ٥٦٩ ان حارة الميدان والشاغور والمزاز وقبر عاتكة والشويكة والقنوات وسوق ساروجا والعقيبة والعمارة وغيرها من الاحياء الخارجة عن السور لم تكن في القرن الخامس او السادس سوى مزارع ومصايف وحدائق ومتنزهات على ما سيجيء

واول متنزهٍ وحارة للفيحاء ﴿ الصالحية ﴾ ذكر بعضهم انها كانت في القرن الخامس للهجرة جناناً وحدائق وقال القرماني الصالحية اسم لثمانية مواضع الاول بلدة قرب دمشق يسكنها قاسيون ذات منابر وحمامات وبساتين ومتنزهات وهي اسلامية وسبب تسميتها بالصالحية انهُ لما نزل بها ابو عمر الجماعيلي المقدسي وعمَّر بها الدير ومدرستهُ الشهيرة وسكن بها هو واصحابهُ وكانوا قوماً صالحين سميت بهم . ويقول النعيمي ان احمد الخطيب والد ابي عمر المنوهُ بهِ كان من بيت المقدس فلما تملكها الافرنج هاجر الى دمشق فنزل بمسجد ابي صالح خارج "باب شرقي" ثم صعد الجبل وبنى الدَّير ونزل بسفح قاسيون وكانوا يُعرفون بالصالحية لنزولهم بمسجد ابي صالح ثم قيل جبل الصالحية

ومما يُذكر ان ابا عمر باني المدرسة بالسفح المسماة اليوم بمدرسة الحنابلة كان شرع سنة ٥٩٨ في بناء المسجد الجامع بسفح قاسيون فانفق عليهِ رجل يقال لهُ ابن محاسن حتى بلغ البناء مقدار قامة فلما نفد ما عندهُ من المال ارسل كوكبري بن زين الدين صاحب اربل مالاً جزيلاً ليتمّ بهِ فكمل وارسل الف دينار ليُساق بها اليهِ الماء من قرية برزة الواقعة الى الشرق من الصالحية فلم يُمكّن من ذلك الملك المعظم عيسى صاحب دمشق واعتذر بان الارض قبور كثيرة للمسلمين فصُنع لهُ بئر وبقل يدور واوقف عليهِ وقفاً لذلك

ولو اذن صاحب دمشق لصاحب اربل ان يجر قناة من برزة الى الصالحية لكان امتدّ عمرانها اكثر ولكانت الدور المشيدة في الاعالي من شعاب الجبل تسقى بها بدلاً من ان تستقي من نهر يزيد بالقُلل والقرب

﴿ دير مُرّان ﴾ كان في سفح جبل قاسيون في حدائق الصُبّار فلم يبقَ لهُ اليوم عين ولا اثر وهو من المتنزهات البديعة في الجاهلية والاسلام قال الخالدي انهُ بالقرب من دمشق على تلّ مشرف على مزارع الزعفران بناؤهُ باجص واكثر فرشهِ بالبلاط الملوّن وهو دير كبير فيهِ رهبان كثيرة وفي هيكلهِ صورة عجيبة دقيقة المعاني والاشجار محيطة بهِ . واكثر الشعراء من التغزل بهِ حتى قال يزيد بن معاوية وقد اصاب المسلمين سباء وقتل بارض الروم

وما أُبالي بما لاقت جموعهمُ بالغَذْقَدُونةِ من حمّى ومن مُوم
اذا اتكأتُ على الانماط مرتفقاً بدير مُرّان عندي ام كلثوم (١)

﴿ البهنسيّة ﴾ في كتاب محاسن الشام وهو مما أُلف في القرن التاسع ان هذا المتنزه روض يجمع بين اشجار مثمرة وعيون ماء تظهر منهُ الى جسر ابن شواش

﴿ جسر ابن شواش ﴾ قال ياقوت ان شواش اسم رجل نُسب اليهِ موضع في متنزهات دمشق فيهِ يقول فتيان الشاغوري

يا حبذا جنة باب البريد بها والحسن قد خُشيتْ منهُ حواشيهِ
فالقصر فالنهر فالقصر المنيف على القصور بالشرف الاعلى فثانيهِ
فالجسر جسر ابن شواش فنَيْربها تحلو معانيهِ لا تحلو مغانيهِ
كأن في رأس علّيين ربوتها يجري بها كوثر سجاف مُجريهِ
تلك المرابع لا رَضْوى وكاظمة ولا العقيق يواديهِ بواديهِ

(١) في بنت عبد الله بن كريز زوجة يزيد . والغذقدونة ويروى خذقدونة وهو النهر الذي منهُ المصيصة وطرسوس واذنة وعين زربة قالهُ ياقوت

﴿ باب البريد ﴾ هو الآن اسم الباب الغربي من جامع دمشق كان قديماً من انزه المواضع . اكثر الشعراء من ذكره ووصفه والتشوق اليه فمن ذلك قول علي بن رضوان الساعاتي

ألَمَّتْ سُلَيْمى والنسيم عليلُ ... فخُيِّل لي ان الشمالَ شَمولُ
كأن الخزامى صَفَّقت منهُ قرقفاً ... فللسكر اعناقُ المطيِّ تميلُ
تلاقت جفون ما تلاقي قصيرة ... وليلُ مشوق بالغرام طويلُ
شديد الى باب البريد حنينهُ ... وليس الى باب البريد سبيلُ
ديار فاما ماؤها فصفَّق ... زلالٌ واما ظلها فظليلُ
نحلتُ وما قولي نحلتُ تعجباً ... هل الحب الاَّ لوعة ونحولُ

وللقوم اليوم بيتان دائران على الالسن قيل انهما كانا مكتوبين بجانب قوس النصر في مدخل المعبد القديم الذي بني الجامع الاموي على انقاضه وهما

عرِّج ركابكَ عن دمشق فانها ... بلدٌ تذلّ لها الاسود وتخضعُ
ما بين جابيها وباب بريدها ... فم يخيب والف بدر يطلعُ

﴿ النيرب ﴾ وربما قيل لهُ النيربان ولم ادرِ ما السبب وهي قرية عُدَّت قديماً من المتنزهات المفرحة بقي الاسم منها فقط وهي على نصف فرسخ من المدينة وسط الرياض ويذهب بعض المحققين الى ان حيَّ المهاجرين في الصالحية اليوم كان داخلاً في النيرب . قال القرماني انها قرية بغوطة دمشق في وسط بساتينها من جهة الغرب وقال ابن بطوطة انها باسفل الربوة والآن قد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتدانت اشجارها فلا يظهر من بنائها الاَّ ما سما ارتفاعهُ . وقال ياقوت هي انزهُ موضع رأيتهُ . وذكر البدري ان محلة النيربين تعلو البهنسيَّة وجسر ابن شواش وانها من اعظم المحلات واخضرها وانضرها وبها سويقة وحمام وجامع وهي مسكن الرؤساء والاعيان وبها دار قاضي القضاة يحيى بن حجي ومنها تدخل الى الربوة

﴿ الربوة ﴾ كانت من أعمر احياء المدينة وازهر متنزهاتها اتفقت على ذلك السن المؤرخين والجغرافيين والادباء . ويستخلص من كلام البدري انهُ فيها مغارة لطيفة بسفح الجبل الغربي وبها جامع ومدارس وعدة مساجد وبها عدة قاعات واطباق وفيها عين ماء يقال لهُ الملثم وبها سويقتان يقطع بينهما نهر بردى وبها صيادو السمك والقلاهون ويذبح فيها كل يوم خمسة عشر رأساً من الغنم ما عدا ما يجيئها من لحم البلد وبها فرنان وثلاثة حوانيت للخبز وحمام لا نظير لهُ بكثرة مائهِ ونظافتهِ ومناظرهِ وبها طارمة خشب المسجد الدبلي الذي جددهُ نور الدين الشهيد ولهُ اوقاف على قرَّاء ووعاظ وقراء البخاري وغيرهم وفيهِ يقول تاج الدين الكندي

ان نور الدين لما ان رأى في الباتين قصور الاغنيا
عمّر الربوة قصراً شاهقاً نزهة مطلقة للفقرا

ولا عجب اذا بنى نور الدين للفقراء قصوراً فقد ذكر القرماني ان داريّا وهي اعظم قرى دمشق كان وقفها ايضاً لعامة فقراء دمشق يُفرق غلالها عليهم

﴿ الشرف ﴾ شرفان اعلى وادنى كان مصايف للاعيان كالربوة والنيرين قال البدري ومن محاسن الشام شرفاها وما حويا من المناظر والقصور وقد تقرب اهلها الى الله ببناء المدارس ورتبوا للفقراء الطعام والمصرف في كل شهر على الدوام فيجلس الطالب في شباكها يطل على المناظر البديعة فينبعث الى طلب العلم ويتحرك في فهمه ما سكن . ويقال انهُ بمدرسة الكجانية قبة فيها طاقات على عدد ايام السنة والشمس تدور على تلك الطيقان لا تدخل اليها وهذا من حسن الهندسة واما جامع تنكز (وهو اليوم مدرسة اعدادية عسكرية) فانهُ في الشرف الادنى وهو من الغايات هندسةً وبناء وفيهِ عشرون شباكاً على خط الاستواء تشرف على الانهار ومرجة الميدان وما حوى . ثم قال وكل من الشرفين يطل على الشقراء والميدان والقصر الابلق والمرجة ذات العيون والغدران قال مجير الدين بن تميم يصف الميدان

عجباً لميدانَيْ دمشق وقد غدا كلٌّ لهُ شرف اليهِ يؤولُ
والنهر بينهما لغير جنـاية سيفٌ على طول المدى مسلولُ

ومن جملة وقف تربة الملك الظاهر برقوق طاحون الشقراء بمرجة دمشق ظاهر قصر الملك الظاهر بيبرس بالقرب من زاوية الاعجام وبينهما قصبة سوق كان فيها عدة حوانيت ويتلخص من ذلك ان المرجة الخضراء كان يمتدُّ عمرانها لا الى شرفيها فقط بل الى وادي الربوة وما والاها واما القصر الابلق فكان مكان التكية السليمانية اليوم . قال شيخ الربوة انهُ من المباني العجيبة الحدثة بدمشق بناهُ الملك الظاهر بيبرس وسمي بالابلق لكونهِ مبنياً بالحجارة البيض والحجارة السود

وفي الروضتين ان صلاح الدين يوسف بن ايوب كان يزور القاضي الفاضل ليستفيء برأيهِ فيما يريد فعلهُ في جوسق (قصر) ابن الفراش بالشرف الاعلى في بستانهِ حتى ان الصفيَّ ابن القابض لما تولى خزانة دمشق لصلاح الدين بنى لهُ داراً مطلة على الشرفين بالقلعة وانفق عليها اموالاً كثيرة وبالغ في تجبيرها وتحسينها وظن انها تقع من السلطان بمكان فما اعارها طرفاً ولا استحسنها وكانت من جملة ذنوبهِ عند السلطان التي اوجبت عزلهُ عن الديوان وقال ما يصنع بالدار من يتوقع الموت وما خُلقنا الاَّ للعبادة والسعي للسعادة وما جئنا دمشق لنقيم وما نروم ان لا نريم

﴿ الخلخال ﴾ محلة ومتنزه كانت على الغالب محل التكنة الجديدة او فيما يليها للغرب ولها سويقة وحوانيت وفرن وحمام وفي القرن التاسع كان يسكنها الاتراك وكذلك المنيبع والشرفين وبها تدق طلخاناتهم[1]

﴿ المنيبع ﴾ كان بها زاوية الادهمية والمنود وهي محفوفة بالناس والاعان لها سويقة وحمام وافران وبها مدرسة الخاتونية كانت من الاعاجيب يشقها في فنائها نهر بانياس ونهر القنوات على بابها ولها عدة خلاوي للطلبة وبجوارها دار الامير منجك والى هذه المدرسة وصل الصليبيون لما نزلوا في ظاهر الفيحاء في القرن السادس . ولا اثر اليوم للبناء في هذه الاماكن بل كلها بساتين وحدائق

﴿ الجبهة ﴾ كان متنزهاً حسناً ذا نواعير وبرك وارض لها فوارات وحوانيت به مسجد ومدرسة . قال البدري ومربط الدواب ومقاصفية واقفون لخدمة الناس وعندهم اللحف والانطاع والاعبئة لمن ينام او يبيت ويعلوها نهران القنوات وبانياس ينحدر الماء اليها منه وفوق النهر حمام النزه والى جانبه مقصف ذو حوانيت فيها البضائع ويمر بوسطه نهر قنوات ويوصل منه الى زاوية الحريري المشهورة وليس بابدع من منظرها وينحدر منها الى المتنزه المسمى بقطية وهو مقصف على ضفة بردى فيه النواعير والبحرات وقصبة سوق تعلوها انزع طباق ومربط للدواب

ويقول كاتب جلبي انهُ كان في المرجة قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ايفاؤها حقها من الوصف سيما ابنية البرامكة وآثارهم فانها لم تزل باقية الى الآن وفيها منظر مشهور يقال لهُ الجبهة ثم اخذ في وصفه بما يقرب مما قالهُ البدري آنفاً . ولا اثر اليوم لكل ما ذُكر من بناء

﴿ العنّابة ﴾ كانت محلة نزهة تشتمل على دور وقصور لا يعرف لهذا العهد سوى اسم ارضها فقط . ذكر البدري ان السبب في تسميتها ان كاهناً في زمن الروم كان يتعبد في صومعة

---

(١) قال صاحب صبح الاعشى شهاب الدين ابو العباس احمد بن علي بن احمد القلقشندي (قلقشندة قرية من عمل قليوب في مصر) المتوفى سنة ٨٢١ هـ ان الطلخانات هي طبول متعددة معها ابواق وزمر يختلف اصواتها على ايقاع مخصوص تدق في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحبة الطلب في الاسفار والحروب وهي من الآلات العائقة بجميع الملوك ويقال ان الاسكندر كان معه اربعون حملة من الطلخانات وقد كتب ارسطو في كتاب السياسة الذي كتبهُ للاسكندر ان السر في ذلك ارهاب العدو في الحرب والذي ذهب اليهِ بعض المحققين ان في اصواتها تهييجاً للنفس عند الحرب وتقوية الجأش كما تفعل الابل بالحداء ونحو ذلك

بتلك الارض فحصل لهُ علة اشرف منها على الهلاك فنزل عليهِ تاجر من تجار الروم ومن جملة متجرهِ خمسة احمال عناب فحملها ونشرها فصار هذا الكاهن يتناول منهُ وقد طاب لهُ فلما اصبح جاء اليهِ الطبيب يجدهُ قد نصل من تلك العلة ووجد الكاهن في نفسهِ نشاطاً فقال لهُ ما الذي استعملت البارحة قال الشيء الفلاني ونسي ان يذكر لهُ العناب فقال الطبيب ولعلك استعملت عناباً قال لهُ نعم من اخبرك بذلك قال لعلمي ان علتك لا يبرئها سواهُ وهو معدوم وخشيت ان أُعلق خاطرك بهذا الدواء فزرع الكاهن الارض التي حول صومعتهِ جميعها عناباً وتقرَّب بها الى كل من احتاج منها الى شيء ان يأخذهُ حتى يقال انهُ وجد في الاسلام من ذلك العناب شجرة واحدة وبني حولها فسميت الحارة بهِ

﴿ سطرًا ومقرا ﴾ من منازهات دمشق وقرى الغوطة قال البحتريّ يمدح خُمارويهِ

أما كان في يوم الثنية منظرٌ ومستمع يُنبي عن البطشة الكبرى
وعطف ابي الجيش الجواد بكرة مُدافعة عن دير مُرَّان او مقرى

وقد خرج منهما جماعة من اهل العلم والدراية وها من ارض الطيبة في الفيحاء كان ينتابهما القوم للتنزهِ ولا يُعرف الآن مكانهما ويؤخذ من بيت توفيق بن محمد النحوي انهُ يخرج اليهما من باب العمارة اي الفراديس وهو قولهُ

سقى الحيا اربعاً تحيا النفوس بها ما بين مقرى الى باب الفراديسِ

وفيهما يقول عبد الرحمن بن خطيب داريا وقد احسن التورية

خليليَّ ان وافيتما الشام بكرة وعاينتما الشقراء والغوطة الخضرا
قفا واقريا عني كتاباً كتبتهُ بدمعي لكم مقرا ولا تنسيا سطرا

وقال ابن عنين واجاد في الوصف

ألا ليت شعري هل ابيتنَّ ليلة وظلك يا مقرى عليَّ ظليلُ
دمشق فلي شوق اليها مُبرِّح وان لجَّ واشٍ او الحَّ عذولُ
بلاد بها الحصباء درٌّ وتربها عبير وانفاس الشمال شمولُ
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصحَّ نسيم الروض وهو عليلُ

﴿ البلكي ﴾ منتزه بين سطرا ومقرا قال البدري ان الناس يجتمعون فيهِ ايام زهر السفرجل ويُطلقون الماء تحت اشجارها ويُوقدون في ظلمة الشهر قشور البيض ويطلقونها في الماء ويعلقون قشور النارنج موقدة في الاشجار ويضربون الخيام في بستان الحاجب ويقطعون فيهِ اياماً واوقاتاً من اللذة والانشراح يعجز الوصف عنها

﴿ الميطور والسيلون ﴾ هما من متنزهات الفيحاء ويقال ان اول من غرس في ارضها غرساً يدهِ سليمان بن عبد الملك

السهم — كان متنزهاً متطلاً بارض الصالحية وهو درب ما بين دور وقصور وبركة وزهور ومياه تجري كهدير البحور قالهُ البدري

المزارع — كان متنزهاً خضراً نضراً تسرح فيهِ الابصار وتجري من تحتهِ الانهار

الماطرون — موضع قرب دمشق عدَّ من بدائعها قال يزيد بن معاوية من ابيات

ولما بالماطرون اذا أكل النملُ الذي جمعا
حُرفةٌ حتى اذا ربعت ذكرت من جلق بيعا
في قباب حول دسكرة ينبهأ الزيتون تُحتلبا

﴿ الحميريون ﴾ كانت محلة بظاهر دمشق على القنوات لها ذكر في خبر شبيب العُقيلي ذكرهُ المتنبي في مدحهِ لكافور

هذا ما عثرت عليهِ من المتنزهات والحارات الداثرة في ضاحية دمشق ولعلَّ ثمت من الاسماء ما فاتني الوقوف عليهِ وكلها مما دثر عمرانهُ بتة ونسيت اسماؤهُ الاَّ قليلاً

محمد كرد علي

استئصال المعدة

يوجد الآن في قيد الحياة خمس نساء ورجلان بلا معدة ، وقد نُزعت المعدة برمتها ١٦ مرة منذ ثلاث سنوات الى الآن وكانت العاقبة حسنة في الغالب . وكان من نصيبي ان شاهدت نزعها مرتين اولاهما في سنت لويس بالولايات المتحدة الاميركية وقد أرسلت تفاصيل تلك العملية حينئذٍ الى مجلة الطبيب والثانية في هذه المدينة منذ عهد قريب وهي في امرأة ولا تزال حيَّة ترزق . وقد تولَّد فيَّ نوع من الرغبة في درس هذا الموضوع الجديد والبحث والتنقيب عمَّا صار اليهِ وكاتبتُ اكثر الجراحين الذين اجروا هذه العملية فاجابوني عمَّا سألتهم عنهُ وارسل اليَّ بعضهم تقارير مطبوعة . وآخر تقرير وصلني كان من استاذي الدكتور مايير Dr. Meyer احدُ تلامذة الدكتور كوخ وهو عن رجل استأصل معدتهُ منذ بضعة اسابيع وفي هذا التقرير من الفائدة ما جعلني الخصهُ لقراء العربية الكرام في آخر هذه المقالة

ولا يخفى ان استئصال المعدة امرٌ لا يزال في طفوليته ولذلك اخلطُ فيهِ كل جرَّاح خطَّةً